

في «مجموع رسائل الجاحظ»

للأستاذ محمد طه الحاجري

—

تفضل الأستاذ الجليل «ناقد» فاستجاب للروح العلمية البريئة، ولما وجهناه إلى جبهة الناقد من دعوة خالصة، فكتب من «مجموع رسائل الجاحظ» فصلاً من فصوله الناقدة في الرسالة، عرض فيه لحروف تعرضت - فيما يرى - للتصحيح أو التطبيق أو خطأ الرسم، متهدياً في ذلك بذوقه الأدبي ومحصوله اللغوي. وما زلنا نرجو منذ ظهر هذا المجموع أن يتاح له حظ النقد البصير. فليس أحق من الجاحظ - كاتب العربية الأول - أن تقضافر القوى وتعاون الجهود على جلاء آثاره وإبرازها في صورة أمينة دقيقة جذيرة به، بعد أن تعرضت آثاره مدى الأجيال الطويلة لكثير الوافر من عوامل التحريف والتشويه والسخ. ومن ذلك كان لنهاية الأستاذ العلامة الناقد بالشاركة في جلاء هذه الطائفة من آثاره أجل الأثر في نفوسنا. وقد تجلت هذه الناية في هذا الفصل، وقد وفق خير التوفيق في بعض ما عرض له، وأما بعضه الآخر فإنا نرى فيه غير ما يرى

وإذا كنا نرى غير ما يرى في أكثر ما عرض له، فرد كثير من ذلك - فيما يظهر - إلى الخلاف بيننا وبينه في الأصل الأول في النشر. فالأصل عندنا في نشر أثر من الآثار العقلية هو إبراز صورة أمينة من ذلك الأثر، بريئة مما تركته عليها الأجيال المختلفة، والأيدى الجانية، من تشويه أو تحريف أو تزوير. وسواء بعد هذا أن نجى هذه الصورة كما نشتهي وكما ترجوها مثلنا، أو أن تكون منجرفة عن هذه المثل. ذلك هو الأصل في النشر، ومن هذا كان الناشر مقيداً في عمله بقيود مختلفة، ومحكوماً بأعباء كثيرة، تمسك يده أن تنطلق، وتكف نفسه أن تتدخل، ولا تدع لزاجه الخاص أو محصولة العلمي سبيلاً إلى أن يفرض نفسه، أو يطبع كلام المؤلف بطابعه،

أو يترك عليه أثراً منه. فأما الأستاذ العلامة «ناقد» فيظهر من اتجاهه فيما كتب عن المجموع أنه يميل قليلاً إلى تحكيم المثل في تحرير عبارة المؤلف

فن ذلك تخطئته إيراد المثل: «كل مجر في الخلاء يسبق» (ص ١٠٢ س ١٩)، لأن المثل المشهور، أو الصورة المشهورة له: «كل مجر في الخلاء يسر»، وهو نفسه يقرر أن المثل صورتين أخريين: «كل مجر بخلاء يسبق»، وكل مجر بخلاء مجيد» فكأنما عز عليه أن يسوق الجاحظ المثل في غير صورته المشهورة، وهذا ولا ريب نوع من تحكيم المثل الذي ذكرنا. وقد كان من الممكن أن نعتبر هذه الصورة المشهورة للمثل، لا لأنها الصورة المشهورة، ولكن لأن الجاحظ قد آثرها في أكثر من موضع في كتبه، كما نرى مثلاً في الحيوان (١: ٨٨، ٤: ٢٠٧) وفي البيان والتبيين (١: ٤٩) الخ، وهذه إحدى الطرق المقبولة في تفضيل قراءة على أخرى، ومع هذا آثرنا ما تعرضه علينا مخطوطتنا الوحيدة في هذا الموضع، إذ ليس ما يدعو إلى فرض تحريفه، ولأن الجملة التي زاوج الجاحظ بها هذا المثل تضمنت احتمال الصورة المشهورة له، فهو يقول: «كل مجر في الخلاء يسبق»، وكل مناظر متفرد بالنظر مسرور»

وكذلك أخذ الأستاذ الناقد علينا أننا ضبطنا هذا المثل: «لن تعدم الحسنة ذاتاً» (ص ١٠٤ س ٨) بحيث تصبح كلمة إلزام اسم فاعل من الهم لا اسماً بمعنى الغيب، إذ كان المثل: «لا تعدم الحسنة ذاتاً»، ثم ذهب الأستاذ يفسر كلمة إلزام كأن المثل أعرب علينا، فقاربنا وتعرفنا على ما فهمنا. والمثل بعد مشهور بتخفيف الميم؛ ولكننا رجحنا أن الجاحظ تصرف في إيراد المثل على الصورة التي أوردناها، ليستقيم مع سياق المعنى الذي يريد تقريره عن الحسد، ودل عليه بكثير من الآثار والأمثال التي لا يستقيم معها ذلك المثل في صورته المأثورة، إلا أن يكون الجاحظ ممن يلقى الكلام على عواهنه، ولا يعبأ أن يستشهد بما لا موضع له، ولا يتساق مع غرضه، ويخالف بين أطراف الكلام مثل هذه المخالفة. ولكن الأمر الذي

لا يعياً به الجاحظ حقيقة هو أن سرف في المثل حتى بطوع له ،
على ذلك النحو الذي لا بأس به

ومن هذا الباب أيضاً نخط . لنا أن نثبت هذه العبارة :
« واستذرات في ظلك » ميموز . لأنه يقال - كما يحكي الأستاذ
الناقد - استذري بفلان أى التذلل إليه ، وفلان في ذرى فلان
أى في ظله . وحسب الأستاذ هـ ، لا لتكون الكلمة خطأ ،
بل ليكون إثباتها منسوبة إلى الجاحظ خطأ . وليست المسألة
بهذا اليسر ، فيما نرى ؛ وإنما انزع الحقيقى للمسألة هو : هل
يمكن القطع بأن هذا الخطأ هو خطأ الناسخ لا خطأ الكاتب ،
وهل مثل هذا الخطأ مما لا سبيل له إلى قلم الجاحظ ، إن كان
لا بد من تسميته خطأ ؟

أما إنه لو صح لنا هذا - كان لنا أن نستفيقه ، ولوجب
علينا أن نستبدل به ؛ ولكن الأسه هنا ليس كذلك . وما أكثر
ما تتعاقب الياء والهمزة في اللغة العربية ، لا في باب الإبدال
وحده ، بل فيما وراء ذلك ، في لا يندرج تحت تلك القواعد
التي عني بتنسيقها وبسطها علماء التصريف . وقد عقد أبو علي
التالي فصلاً في أماليه في « ما يمال بالياء والهمزة » إلى كثير
غير ذلك من الكلمات التي لا تقع في باب الإبدال الرسمي
ولقد جاء في بعض الآثار الأدبية ما يدلنا على أن الفرق بين
ما أصله الهمزة وما أصله الياء لم يكن من الفروق التي تحسمها
السليقة اللغوية إحساساً قوياً . من ذلك ما جاء في شعر الأعشى
على رواية يعقوب بن السكيت :

إذا انبطحت جاني عن الأرض بطنها

وخوأها راب كهسامة جنبل

ويعلق أبو عبيد البكري ، في لآليه ، على هذا البيت بقوله :
« وخوأها مما همز ولا أصل له في الهمز » ثم يذكر أن الرواية
الأصح ، لهذا السبب ، هي رواية من قال : « وخوى بها » .
وهذا ، في أكبر الظن ، نوع من تحكيم المثل في الرواية ،
كالذي ذكرناه من تحكيم المثل في النشر
ومثل هذا ما أخذوه على شاعر إيلاني ، هو السعودي ،

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، في قوله :

شققت القلب ثم ذرأت فيه هواك فلم فالتسام الفطور
فقد قالوا إنه أخطأ حين قال « ذرأت » ، وكان القياس أن يقول
« ذريت » بالياء

وهكذا نرى أن وضع الهمزة موضع الياء ليس من الأخطاء
المغلظة التي يجمل الجاحظ عنها ، أو نأنف له أن يقع فيها ، فنزعم
ما وقع من ذلك خطأ ناسخ يجب استصلاحه . وما دمتنا لا نملك
الدليل على أن وضع الهمزة موضع الياء من صنع الناسخ ؛ وما دمتنا
لا نبعد أن يكون هذا من عبارة الجاحظ ، فإن ما يقترحه الأستاذ
الناقد من وضع « استذريت » موضع « استذرات » يعتبر نوعاً
من تحكيم المثل في النشر

فهذا نوع من المآخذ التي أخذها علينا العلامة الناقد .
وهناك نوع آخر يرجع إلى العجلة ، أو إلى إخطاء الدقة له ،
كقوله فيما علق به على قول الجاحظ (ص ١١٠ من ١٧) :
« لا سيما إن كان مع استبطان الحسد الخ » إذ يقول : « قلت
جاءت ولا سيما في هذا الموضع وفي غيره مجردة من ذنبك الحرفين ،
وأستبعد كثيراً هذا التجريد في كلام المحدثين الأولين ، وإن
أجاز ذلك نحاة من المولدين المتأخرين . وقد وردت اللفظة ومعها
صاحبها في ص ٢٤ ، ٦٨ » فلم نجح في « لا سيما » في عبارة
الجاحظ مجردة عن لا والواو ، بل عن الواو فقط ، على الشذوذة
التي أوردناها في هذه الفقرة

ومثل هذا ما جاء في التعليق على هذه العبارة (٢١ : ١٦ -

١٧) : « وسواء - جمعت فذاك - ظلمت بالبطش والنشم ،
أو ظلمت بالدخس والدس » واقتراحتنا وضع الدخس موضع
الدس ، إذ كان ذلك أشبه ، فتوهم أننا إنما نضمها موضع الدخس ،
ثم اقترح بدلاً من ذلك كلمة « الرس » . وهذا قد قائم على
التوهم المحض . وما كان لنا أن نقترح كلمة موضع كلمة نظيرة لها
في المعنى ، وليس بما يمنع منها

وهناك غلط ثالث من المآخذ يرجع إلى الخلاف على الرسم ،
وما نجب أن يطول الجدل حول هذا ، إذ كانت قواعد الرسم

ولما نبه عليه من أخطاء مطبعية ، كلمة (مصارع) (٦٣ : ٧)
وكلمة « السرف » (٦٤ : ١) ، وكلمة (يذب) (١٠٣ : ٧)
وإنما للأسف أشد الأسف لوقوع مثل هذه الأخطاء على شدة
حرصنا أن يخلو هذا المجموع منها

ولكن أشد هذه الأخطاء التي نأسف لها أسفاً يمتلج في
في القلب ورود هذه الكلمة (نيسا) (١١٧ : ١٤) على هذه
الصورة المموجة ، في أبيات مشهورة . رويت في أمهات كتب
الأدب العربي لحاسة أبي تمام وذيل الأملالي لأبي علي والأغاني .
وقد ظن الأستاذ الناقد أنها مصحفة عن « نيسا » ، وهذا
ولا ريب تصحيح طيب ، ولكنه صريح . وصواب الكلمة
عندنا (قشيبا) ، كما جاءت في رواية أبي علي القالي :

وإذا اكتسى ثوباً قشيباً لم أقل ياليت أن على فضل ردايه
وبعد ، فهذه كلمات نرجو أن نكون قد أنصفنا بها أنفسنا
وأنصفنا بها الحقيقة ، وأنصفنا فيها أستاذنا الناقد الجليل ،
والسلام عليه ورحمته وبركاته . محمد طه الحامري

لم تنقرر بعد على أصل ثابت . وقد أخذ علينا الأستاذ الناقد أننا
رسمنا التواطؤ مرة بالواو وأخرى بالياء ، ولعله حسب ذلك
اضطراباً وتهاوتاً ، مع أن كلا منهما يخضع لقاعدة من قواعد
الهمزة المتطرفة ، على ما تنص عليه بعض المذاهب من أن الهمزة
المتطرفة المكسورة ترمي ياء مطلقاً ، والمضمومة ترمي واواً إذا
كان ما قبلها مضموماً . وكذلك جاءت كلمة « التواطؤ »
مرفوعة في (ص ٢٤ س ١٦) : « لا يمكن في مثله التواطؤ »
ومجرورة في (ص ٤٠ س ١٩) : « وقام نجيء الأخبار من
غير تواطؤ ولا تشاعر مقام الميان » ، فالحالتان كما نرى
مختلفتان

ومن هذا الباب أيضاً تخطئته رسم كلمة « غنا » بالآلف
فهي - فيما يقول - مقصورة رسم بالياء ، وممدودة رسم بالآلف
والهمزة ، وهي هنا مقصورة بدليل كسر أولها ، فيجب أن ترمي
بالياء ، ولكن لهذه الكلمة في عبارة الجاحظ اعتباراً آخر ،
فهي ليست مقصورة فقط ، ولكنها مقصورة منونة ، أثبت
التون في آخرها كما أثبت الكسر في أولها ، وهذا هو موضحها
(ص ١٨ س ٩) : « والإفراط في جر المنفعة غناً لمن أفرطت
في نفعه عنك » وقياس أبي عثمان المازني أن مثل هذا رسم
بالآلف . فإذا علمنا أن من علماء الرسم من يرى أن يكتب الباب
كله بالآلف على الأصل كان في هذا ما يعضد رأى المازني
في المتن

وإذا كان الخلاف في مثل هذا يستحق التأمل والوقوف
عنده ، فالخلاف في كلمة « السوء » في قوله الجاحظ (ص ٣٠
س ٤) : « فتحرز من دخلاء السوء ومجالسة أهل الريب »
أمر بالضم أم بالفتح خلاف لا جدى له ، فرد الكلمتين في المعنى
واللفظ واحد ، وإحداهما اسم والأخرى مصدر ، وما يذكر بينهما
من فروق ليس هنالك . وقد قرئ بهما في كثير من آيات
القرآن الكريم ، كآية التوبة : « عليهم دائرة السوء » وآية
الفرقان : « ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء » ، وآية
البنح : « الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء » إلى غير ذلك
من الآيات

وبعد ، فإن شكرنا للأستاذ الناقد لا ينقضي لهذا التوجه
السكريم إلى (مجموع رسائل الجاحظ) ولما جاء في مقاله من نقد
عبقري بصير ، كما في كلمة (الذابيع البذر) (٤٥ : ١) ،

مسائل الشرق

(١) اسم بار الاسم

(٢) الاسم وآسيا أمام المطامع الاوربية

للكاتب الفرنسي الشهير

أوجين يونغ

نمن الكتابين ٢٠ والبريد ٦٣ ملها

يطلب من دار الكتب الأهلية تليفون ٤٩٥٦١

ميدان الأوبرا - مصر